الصفات الصوتية الفارقة
بين صوامت اللهجية العربية في ضوء مناهج التحليل اللغوي

الأستاذ المساعد الدكتور
محمد جعفر محيسن العارضي
جامعة القادسية – كلية الآداب

إذا كان علم الأصوات العام " الفونتيك " يعنى بالنظام النطقي للأصوات من جهة مخارجها و صفاتها ، و علم التشكيل الصوتي " الفونولوجي " يعنى بتقسيم الأصوات و تغيراتها ، و كذلك يعنى بالظواهر الموقعية [١] . فإنَّ دراسة الصفات الفارقة تأتي لت قيم علاقة متوازنة بين العلمين و ما يعنيان به . فهي تشتمل على الدراسة الإفرادية و الدراسة التركيبية للأصوات .

يأتي النظر في " القيم الخلافية " بين الوحدات الصوتية بدرجة من الأهمية لا تقل عن الأهمية التي يتمتع بها النظر في " القيم الوفاقية " [٢] لهذه الوحدات . و هذه " القيم الخلافية " أو " الصفات الفارقة " بين الوحدات الصوتية تظهر أ همیتها في تكوَّن الصوت من جهة ، و تفسير التغير الصوتي الذي يصيب الوحدات الصوتية في سي اقات التشكيل الصوتي من جهة ثانية .

و تمثِّ " القيم الخلافية " التبا ين في الوظيفة ؛ و هذا يعني أنَّ ((الوظيفة التي يؤديها الصوت في نطاق المنظمة الصوتية هي معناه ، أو على الأصح هي قسط المعنى الذي قصد به أن يؤديه . و من ثم صح أن يسمَّى القسط الذي يؤديه الصوت من المعنى معنى وظيفيا أي أنَّه ليس معنى معجميا)) [٣] .

و ما يجعل النظرة في " الصفة الفارقة " تتخذ طابع الوضوح و التحديد أنَّها القيم الإيجابية في الوحدة الصوتية ، و القيم السلبية التي تتحدد تبعا لها الوحدة الصوتية نفسها بالموازنة مع وحدة صوتية أخرى .

و " الصفة الفارقة " هي الصفة الصوتية التي بوجودها فقط يكون هذا الصوت أو ذاك . بمعنى أنَّها الصفة التي تكون هي المختلف الوحيد بين صوتين أو أكثر ؛ فقد تتفق الأصوات بمجموعة من الصفات ، و لكنَّها يجب أن تختلف في صفة أو أكثر ، و هذه الصفة الصوتية المختلفة هي التي خلقت هذا الصوت ، فلولا عدم اختلافه بها لما وجد .

تكوّن الصفات الصوتية :

لا ينفصل الصوت اللغوي عن صفته ؛ إذ لا يمكن أن تُنتج وحدة صوتية ما بمعزل عن صفة تلازمها و تتمثل فيها . بمعنى أنَّ الصوت الل غوي يُلحظ بصفته أو بصفاته المتعددة . و تأتي الصفة الصوتية لتحدد الصوت و تمنحه قيمته الصوتية البنائية و الوظيفية .

و تعتمد الصفات الصوتية في نشأتها على مجموعة من المعطيات أو الحالات ، يمكن تلخيصها في الآتي : [٤] .

الحال الأولى :

تتمثل في طبيعة مرور الهواء في الممر الصوتي و ما ينتج عند اعتراضه بعارض . و لها حالات تتمثل في :

١- عندما يعوق الهواء الخارج من الرئتين عائق يمنعه من المرور عند نقطة معينة في الممر الهوائي ، و من ثم يزول هذا العائق بسرعة ؛ فينفتح الممر ليسمح بخروج الهواء و اندفاعه بسر عة و شدة يحدث معها انفجار . و في هذه الحال يكون الصوت المنتج صوتا انفجاريا ، أو وقفيا [٥] ، أو شديدا [٦] .

٢- عندما يضيق الممر الهوائي ضيقا يسمح للهواء معه بالمرور فيحدث احتكاك بين الهواء و عضوي الممر . و الأصوات التي تخرج مع هذه الحال هي الأصوات الاحتكاكية ، أو الرخوة ، أو الاستمرارية .

٣- غلق الممر الهوائي و منع الهواء من المرور ، و بعد ذلك يتم فتح الممر ببطء ؛ فيحدث الاحتكاك و كذلك الانفجار المصاحبين للحال الأولى و الثانية . و هذا يجعل الصوت الصادر هنا صوتا مركبا ، أو مزجيا ، أو نصف وقفي .

٤- أن يتجنب الهو اء نقطة الإغلاق و نقطة التضييق فينحرف جانبا ؛ ليكون الصوت جانبيا . و قد يخرج من الأنف ؛ فيكون الصوت مصحوبا بغنة . و في حال التضييق قد لا يكون مستقرا ؛ فيحدث الصوت التكراري . و هذه الأصوات الناتجة مع الحال الرابعة هي الأصوات المتوسطة ، أو المائعة ، أو السائلة .

الحال الثانية :

اهتزاز الوترين الصوتيين أو عدم اهتزازهما . و تنقسم الأصوات بلحاظ حركة الوترين أو عدم حركتهما على قسمين :

١- عندما يهتز الوتران الصوتيان عند النطق يكون الصوت مجهورا .

٢- عندما لا يهتز الوتران الصوتيان يكون الصوت مهموسا .

الحال الثالثة :

ارتفاع مؤخرة اللسان أو انخفاضها . و لها حالتان هما :

إذا ارتفعت مؤخرة اللسان نحو الطبق عند التصويت بصوت معين ؛ يكون الصوت عندئذ مفخما . و عندما تنخفض مؤخرة اللسان عند التصويت بصوت ما ؛ يكون الصوت في هذه الحال مرققا .

التحليل الوظائفي للصفات الصوتية الفارقة :

يعتمد النظر الصوتي التحليلي لهذه الصفة أو تلك على طبيعتها البنائية و تشكلها كقيمة لغوية مستقلة من جهة . و يعتمد على ما تقدِّمه للنظر الصوتي الوظيفي الذي يعتمد الجوانب التركيبية و السياقية من جهة ثانية . و هذا يعني بطبيعة الحال أنَّ الصفة الصوتية ه ي القيمة الذاتية للوحدة الصوتية الإفرادية سواء كانت فونيما صوتيا أم مظهرا ألفونيا لهذا الفونيم المتنوع أو ذاك . و تظهر الفروق الصفاتية في مجموعة من الأصوات :

المجموعة الأولى – الأصوات الأسنانية اللثوية :

الأصوات الأسنانية اللثوية و صفاتها هي : [٧]

انفجاري (شديد)				احتكاكي (رخو)			
مجهور		مهموس		مجهور		مهموس	
مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق
ض	د	ط	ت		ز	ص	س

و يتمثَّل الفرق في الصفات الصوتية الآتية :

١ – الهمس و الجهر :

الهمس : هي الصفة التي تنشأ عندما لا يهتز ا لوتران الصوتيان عند التصويت . أمَّا الجهر فهو صفة تنشأ عندما يهتز الوتران الصوتيان عند التصويت بصوت ما [٨] .

و يظهر الفرق من خلالهما في :

أ – الفرق بين " ض " ، و " ط " .

هذان الصوتان يتفقان بصفة التفخيم و الانفجار . و لا يختلفان إلا في صفة الهمس ، إذ كان " ط " مهموسا ، على حين كان " ض " مجهورا [٩] . و هذا الوصف يختلف عن وصف التراثيين ، فكأنَّ " ض " عندهم ((أقل شدة مما ننطق بها الآن)) [١٠] . و كأنَّه أيضا

صوت جانبي يشبه " ل " ؛ و من ثم فهو صوت احتكاكي و ليس انفجاريا ؛ لأنَّه يخرج من أحد جانبي الفم أو من كليهما . و هذا يقود إلى الاعتقاد أنَّهم يتحدثون ع ن " ض " لا نعرفها ، و لا نمارس التصويت بها في واقعنا اللغوي . فهي في مخرج لا يشاركها فيه صوت آخر ، فضلا عن أنَّ مقابلها المفخم هو صوت " ذ " ، و ليس صوت " د " كما في نطقها الحاضر [١١] . يقول سيبويه : ((لولا الإطباق لصارت الطاء دالا ، و الصاد سينا ، و الظاء ذالا ، و لخرجت الضاد من الكلام . لأنَّه ليس شيء من موضعها غيرها)) [١٢] . و من نظر في وصف سيبويه لهذا الصوت ينتهي إلى أنَّه ((صوت فريد لا نكاد نجد له نظيرا في اللغات السامية)) [١٣] .

و الملاحظ أنَّ " ض القديمة " يعسر التصويت بها على العربي و غير العربي [١٤] في آن واحد . و من المحدثين من نظر في نصوص التراثيين المتضمنة وصفا لنطق " ض " ؛ فانتهى إلى أنَّه ((يبدو على كل حال أنَّ الضاد القديمة في نطقها كانت تجمع بين الظاهرتين ، ظاهرة خروج هوائها من جانبي الفم كاللام ، و ظاهرة الاحتكاك . و بتطبيق هاتين الظاهرتين مضمومتين إلى نقطة النطق نحس بصعوبة بالغة في نطق هذه الضاد ؛ و قلَّما استطاع واحد منا أن يأتي بنطق مثالي يوائم ما قدَّمه لها العرب من خواص و سمات)) [١٥] .

و قد تخيل الدكتور إبراهيم أنيس التصويت بصوت " ض القديمة " فقال : ((و الضاد القديمة كما أتخيلها يمكن النطق بها بأن يبدأ المرء بالضاد الحديثة ثم ينتهي نطقه بالظاء ، فهي إذن مرحلة وسطى فيها شيء من شدة الضاد الحديثة و شيء من رخاوة الظاء العربية ، و لذلك كان يعدها القدماء من الأصوات الرخوة)) [١٦] . و لعلَّ هذه الوحدة الصوتية المخصوصة هي ما سمَّاها سيبويه " الضاد الضعيفة " و ذكرها بين مجموعة من الأصوات التي سمَّاها " غير مستحسنة " [١٧] . و الدكتور إبراهيم أنيس يقول في وصف سيبويه لهذه " الضاد الضعيفة " إنَّه : ((حاول وصفها في كلام لم نستطع حتى الآن أن نحدد مدلوله في ضوء الدراسات الصوتية الحديثة)) [١٨] . و قد تكون هذه الوحدة الصوتية الموصوفة في كلام سيبويه و حدة صوتية بين " ض " ، و " ظ " . أو هي ألفون معين من ألفونات " ض " ، أو " ظ " .

و من الملاحظ أنَّ " ض " ، و " ظ " ((يشتركان في بعض النواحي الصوتية ، أو بعبارة أخرى كان وقعهما في الآذان متشابها)) [١٩] . فهما يشتركان في صفات كثيرة منها الجهر و الاحتكاك و الاستطالة [٢٠] .

و على الرغم من أنَّ ((الضاد العتيقة حرف غريب جدا)) [٢١] ، غير أنَّ هنالك محاولة في وصف التصويت بها و مقاربته إلى التصويت بصوت " ض " الحديثة . و في ذلك يقول الدكتور كمال بشر : ((ليس أمامنا من توضيح لنطق هذا الصوت أكثر من القول : لعلَّها تشبه الصوت الذي هو وسط بين الضاد و الظاء في بعض اللهجات في البلاد العربية كالعراق و الكويت ، أو بعبارة أدق ، لعلَّ ما ينطقه هؤلاء الناس في هذه المناطق أثر من آثار الضاد القديمة ، أو هو تطور صوتي لها)) [٢٢] . و هنالك محاولة أخرى تذهب إلى ((أنَّ للضاد نطقا قريبا منه جدا عند أهل حضرموت ، و هو كاللام المطبقة . و يظهر أنَّ الأندلسيين كانوا ينطقون الضاد مثل ذلك)) [٢٣] . و من الباحثين من لا يرى ضرورة لمثل هذا التحليل ؛ لأنَّ مخرج " ض " ما يزال حيا عند القراء ، ع لى الرغم من أنَّه يستعصي على غيرهم من الناطقين الاعتياديين ؛ فيأتي صوت " ض " ملتبسا بغيره من الأصوات [٢٤] .

و يذهب المستشرق الألما ني يوهان فك إلى خلاف ذلك ، إذ يقول : ((و هذا الصوت الذي هو في أصله الحرف المطبق القسيم للذ ال خاص بالعربية بحيث يسمَّى العرب في أحد الأحاديث المشهورة : الناطقين بالضاد)) [٢٥] . و إذا صحَّ هذا الوصف فإنَّه لا يبقى إلا احتمال أنَّ اللغويين التراثي ين قد وصفوا صوتا مولدا و لم يصفوا " ض " العربية الأصلية [٢٦] . و يبقى تحول " ض" إلى " د " ، و على الرغم من أنَّ هذا التحول قد بُني على تصحيف " ذ " و التحول بها إلى " د " في كلام يوهان فك [٢٧] ، فهو قد يتماشى مع تطور صوت " ض " و لا سيما عندما يقابل مع ما في اللغات السامية ، إذ يقابلها صوت " ص " ، و " ع " ، و " ز " ؛ ما يعزز أنَّها كانت صوتا احتكاكيا [٢٨] . بمعنى أنَّها اتخذت سبيلها من الأصوات الاحتكاكية إلى الأصوات الانفجارية فلا يبعد عندئذ قربها من صوت " د " الذي يماثلها في صفاتها خلا الترقيق الذي صار صوت " د " به صوتا . و سيأتي ذُكر ذلك في الكلام على الفروق في صفتي الترقيق و التفخيم . و عندما نُعمِّق النظر اللغوي المقارن يظهر أنَّ " ض " في اللغات السامية كانت صوتا مزدوجا يتألف من " ق " ، و " س " ؛ فهذه الوحدة الصوتية هي " ع " ، و " ق " يتبعهما صوت أسناني ؛

فإنَّ كلمة " أرض " مثلا يقابل صوت " ض " فيها صوت " ص " في الأكادية و العبرية " أرص " ، و صوت" س " في بعض اللغات العراقية القديمة " أرسيتو " ، و صوت " د " في الحبشية " أرد " ، و صوت " ع " ، و " ق " في الآرامية " أرعا " ، و أرق[٢٩] . و هذا يجعل تطورها في العربية قائما أيضا ، إلى الحد الذي جعل من الدارسين من يذهب إلى انقراض هذا الصوت من العربية الفصحى [٣٠] .

و لعلَّ تطور هذا الصوت و وصف اللغويين لما كان قد تطور عن " ض " الأصيلة يتماشى مع تنوع التصويت بهذا الصوت ، فإنَّ ((من الناس من ينطقها كالدال ، و غيرهم كالطاء ، و آخرون يومئون إليها بالظ اء)) [٣١] . و نطقها ذ الا مفخمة بسبب من اشتراكهما في القوة و الجهر ، أمَّا التصويت بها " ط " فيكون بسبب من جعل إطباقها إطباقا أقوى [٣٢] . و كذلك ((بعض الناس ينطقها ذ الا مفخَّمة و بعضهم ينطقها ذ الا عامية و أخيرا ينطقها بعضهم لاما مفخَّمة)) [٣٣] .

و يقول الدكتور إبراهيم أنيس في هذا السياق : ((الذي نستطيع تأكيده هنا هو أنَّ الضاد القديمة قد أصابها بعض التطور حتى صارت إلى ما نعهده لها من نطق في مصر ، و أنَّ هذا التطور كان قد تم في عهد ابن الجزري ، أي في القرن الثامن الهجري ، فهو يقول في كتابه التمهيد إنَّ المصريين و بعض المعاربة ينطقون بالضاد المعجمة طاء مهملة)) [٣٤] .

و من هنا يمكن تفسير التغير الصوتي ا لذي يصيب " ض " فيحوله إلى " ط " و لا سيما في اللهجات المصرية . فما يحدث في هذه اللهجات هو همس " ض " المجهورة ؛ فتتحول إلى " ط " في مثل قولهم : " طرب " ، و " الطبط " ، و " طاع " في : ضرب ، و الضبط ، و ضاع . و غير هذا كثير .

و هنالك خلاف في صفة " ط " فقد ذهب التراثيون إلى أنَّها صوت مجهور [٣٥] ، و عدَّ المحدثون ذلك خطاء و فسروه بسبب من غرابة صوتها على السمع لأنَّها مصحوبة بالهمزة ، و ذلك عندما تقفل الأوتار الصوتية عند التصويت بها و تفتح فجأة [٣٦] بعد ذلك . و منهم من ذهب إلى أنَّ " ط " المجهورة تستعمل في اللهجات العربية الحديثة ، و لا سيما في مناطق جنوب شبه الجزيرة العربية ، و هي تقترب من صوت " ض " عند المصريين [٣٧] في هذه الأيام . و منهم من ذهب إلى أنَّها قد اندثرت و لا وجود لها في الاستعمال الحديث [٣٨] .

ب – الفرق بين " د " ، و " ت " .

هذان الصوتان يتفقان بصفة الترقيق ، و الانفجار . و يختلفان في الجهر و الهمس ، فإنَّ " ت" مهموس و هذا ما أوجده لأنَّ مقابله المجهور يساويه في التفخيم و الانفجار و وحدة المخرج .

و ما يميز " ت " أيضا أنَّه مصحوب بنفخة قد تجعله يبدو مركبا [٣٩] . و هكذا فإنَّ ((بعض معنى " د " أنَّها صوت شديد مجهور ، و بعض هذا المعنى أيضا أنَّها ليست " ت " ... فالبعض الثاني من المعنى ، أو سمِّه مفهوم المخالفة إن أردت أو الجانب السلبي إن شئت ؛ هو الذي ينبني على القيمة الخلافية بين " د " ، و " ت ")) [٤٠] . و على الرغم من هذا فإنَّ التقارب حاصل و هو شديد بين " ت " ، و " د " . يقول سيبويه في سياق الكلام على إدغام الأصوات ((و لم نذكر ما يدخل في الحروف لأنَّه بمنزلة ما يدخل في الحروف و هو من موضعه ، يُعنى مثل قُدت حيث تُدغِم الدال في التاء ، لأنَّها بمنزلة تاء أُدخلت على تاء)) [٤١] . فقوله " تاء أُدخلت في تاء " يعني أنَّ تقاربا شديدا بينهما .

و ما يحدث من تغيرات صوتية تغير " د " إلى " ت " . بمعنى أنَّ" د " تتحول من و حدة صوتية مجهورة إلى وحدة صوتية مهموسة . و هذا ما يفسر التغير الصوتي في سياق هذا الصوت . إذ ((مع أنَّ هذا الصوت مجهور في صفته العامة ، إلا أنَّه قد يهمس في بعض المواقع في الكلام العامي)) [٤٢] .

يحدث همس " د " " كما في قولهم : تفتر " في : دفتر [٤٣] . و قولهم : " يتفن " ، و " رفت " ، و عيت " في : يدفن ، و رفد ، و عيد [٤٤] . و كذلك ما يستعمل في اللهجات العربية الحديثة من مثل قولهم : " تكان " ، و " تكتور " في : دكان ، و دكتور ... و غير ذلك .

و قد تجُهر " ت " فتتحول إلى " د " في قولهم : " فزد " في : فزت [٤٥] . و في نطق القاهريين ، فيقولون : " يتزحم " في : يدزحم [٤٦] . و مثل هذا ما يستعمل في اللهجات العراقية الحديثة من مثل قولهم : " دكسي " في : تكسي . و كثيرا ما نشعر أنَّ " ت " في أغلب اللهجات العربية الحديثة تصوَّت و كأنَّها " د " .

و هنالك ظاهرة صوتية عند الأطفال هي تغيير " ت " إلى " ن " ، و ذلك في قولهم : " نين " في : تين . و يظهر أنَّ الأطفال جهروا بصوت " ت " أول الأمر فصار " د " ، ثم صار مجرى " د " من الأنف فتحولت إلى " ن " [٤٧] .

ج- الفرق بين " ز " ، و " س " .

يتفق الصوتان في الترقيق و الاحتكاك ، و يختلفان في الجهر و الهمس ، فالأول مجهور و الثاني مهموس [٤٨] . و هذا ما يفسر التبادل الصوتي بينهما . فضلا عن كونهما يتحدان في صفة الصفير التي تقف سببا رئيسا في حدوث هذا التبادل .

و قد يُجهر " س " فيتحول إلى " ز " كما في قولهم : " زقر " في : سقر [٤٩] ، و " أزدل " ، و " كيز زبيب " في : أسدل ، و كيس زبيب [٥٠] . و قد يُهمز " ز " فيتحول إلى " س " كما في قولهم : " نشس " في : نشز [٥١] . و لعلَّ تحليل هذا التحول يقترب من تحليل تحو ل " ص " إلى " س " ، و يرتبط به في وجه من الوجوه ؛ ذلك بأنَّ هذه الأصوات تتبادل بالترابط ، فقد تحول " ص " إلى " س " ، و من ثم تتطور " س " إلى " ز " [٥٢] ، كما في " صراط " ففيها " سراط " ، و " زراط " [٥٣] . و قد يكون هنا أنَّ " ص " تحولت إلى " س " ، أو بالعكس . و تحولت " ص " إلى " ز " أيضا . و هذا التحول المباشر يعني أنَّها تكتسب صفة الجهر ؛ فيقرِّبها هذا من صوت " ظ " و صوت " ز " ، و يضعها أيضا متوسطة بين " ص " و " ز " [٥٤] ؛ لذلك يكون الأقرب أنَّ " ز " تطور لصوت " س " في هذا الاستعمال ، فيحقق تطورها هنا وحدة صوتية واحدة ؛ فيكون قريبا من التفسير الفونولوجي لهذا التغير . و اللافت في " زراط " هو مقاربة " ط " فيها إلى " د " . و هذا يعني أنَّ " ز " المرقق المجهور يقاربه " د " المرقق المجهور أيضا .

و قد يفسَّر التغير الصوتي في هذا السياق على أساس من التأثر الص وتي المدبر ، بمعنى أنَّ الوحدة الصوتية " ط" قد تكون أثَّرت في الوحدة الصوتية " ص " فحولتها إلى " ز " [٥٥] .

و عندما ننظر إلى هذا التبادل الصوتي على ضوء من ظاهرة " الحمل الوظيفي " التي تعنى بشيوع المقابلات الصوتية ، و أثرها في مقاومة الاختفاء عبر المراحل التأريخية لهذه اللغة أو تلك [٥٦] ، نجد أنَّ هذا التبادل الصوتي من المقابلات التي تتمتع بالشيوع ؛ و من ثم فهو يتمتع بالمقاومة للاختفاء خلال الاستعمال على مدى المراحل .

٢- الانفجار و الاحتكاك :

يحدث الانفجار عندما يغلق ممر الهواء و ينفتح بشكل مفاجئ ؛ فيتسبب هذا الانفتاح المفاجئ بالانفجار . أما الاحتكاك فيكون عندما يغلق ممر الهواء و ينفتح بشكل تدريجي ؛ مما يتسبب في جعل الهواء يحتك بجدار الممر الصوتي .

و يظهر الفرق من خلالهما في :

أ- الفرق بين " د " ، و " ز " .

الصوتان مرققان مجهوران . و الأول انفجاري و الثاني احتكاك ي . و لم يحدث تغير صوتي متبادل بينهما . و لعل السبب يكمن في أنَّ صفيرية " ز " تمنع من ذلك . بمعنى أنَّها عززت الفرق بينهما .

ب- الفرق بين " ط " ، و " ص " .

الصوتان مفخمان مهموسان ، و الأول انفجاري ، و الثاني احتكاكي . و هذا هو الفارق بينهما . و لم يحد ث تغير صوتي متبادل بينهما . و لعل السبب يكمن في أنَّ صفيرية " ص " تمنع من ذلك . بمعنى أنَّها عززت الفرق بينهما أيضا .

ج - الفرق بين " ت " ، و " س " .

الصوتان مهموسان مرققان ، الأول انفجاري ، و الثاني احتكاكي . و مما كان في اللهجات العربية التراثية أن تحولت " س " إلى " ت " في : النَّاس = النَّات . و هذه الخصيصة اللهجية تنسب إلى لهجة اليمن . و لا شك في أنَّ هذه الظاهرة لا تمثل القبائل اليمانية كلّها ، ففي اليمن قبائل بدوية تميل إلى الشدة في أصواتها و قبائل حضرية تميل إلى الرخاوة . و يمكن أن ينسب تحول " س " إلى " ت " إلى قبيلتي " خثعم " و " زبيد " اليمانيتين لأنَّهما الأقرب إلى البداوة من بين قبائل اليمن [٥٧] . و ما هذا التغير إلا عبارة عن التحول بصوت " س " من الرخاوة إلى الشدة من خلال تضييق ممر الهواء بدلا من إغلاقه . و هذا الأمر مرتبط بظروف بيئية معينة . و ما حدث من تغير تبادلي هنا يمكن أن يفسَّر بأنَّ الصوتين " س " و " ت " ((يكادان يكونان متماثلين في المخرج ، كما أنَّ كلا منهما صوت مهموس ، و لم يبق إذا إلا أن يلتقي طرف اللسان بأصول الثنايا العليا التقاء محكما به ينحبس النفس حتى إذا انفصلا انفصالا مفاجئا سمع ذلك الصوت الانفجاري الذي نسميه بالتاء ، في حين أنَّه في حالة النطق بالسين نلحظ أنَّ انحباس النفس لا يكون محكما ، بل هناك فراغ ضيق بين طرف اللسان و أصول الثنايا العليا ليتسرب منه الهواء)) [٥٨] .

٣- التفخيم و الترقيق :

يحدث التفخيم من خلال مجموعة من القيم الصوتية العضلية المتمثّلة في " الإطباق ، و التحليق " . أمَّا الإطباق فهو رنين مخصوص يرافق صوتا ما بسبب من

ارتفاع مؤخرة اللسان نحو الطبق من دون تحقق اتصال بينهما ما يُحدث قيمة صوتية مضافة تصاحب الصوت المنطوق به [٥٩] . أمَّا " التحليق " فهو أن تقترب مؤخرة اللسان من جدار الحلق الخلفي ، بسبب من تراجع اللسان بشكل عام [٦٠] .

أمَّا " الترقيق " أو " التغوير " فهو ((الميل بالصوت ذي المخرج الذي خلف الغار إلى أن ينطق في الغار ، أو أقرب ما يكون إليه)) [٦١] .

و من هنا يكون التفخيم ((ظاهرة أصواتية ناتجة عن حركات ع ضوية تغير من شكل حجرات الرنين بالقدر الذي يعطي الصوت هذه القيمة الصوتية المفخمة)) [٦٢] .

و يظهر الفرق من خلالهما في :

أ- الفرق بين " ض " ، و " د " .

يفترقان بتفخيم " ض " و ترقيق " د " . و يتشابهان في الهمس و الانفجار . و يحدث في اللهجات المصرية الحديثة تغير " ض " إلى " د " . كما في قولهم : " درب " ، و " دياع " ، و " دروري " في : ضرب ، و ضياع ، و ضروري . و ينبغي أن ننبهَّ هنا على أنَّ تحول " ض " إلى " د " قريب من تحولها إلى " ط " المفخمة أيضا .

ب- الفرق بين " ط " ، و " ت " .

يفترقان بتفخيم " ط " و ترقيق " ت " . و يتشابهان في الهمس و الانفجار [٦٣] . و ما يحدث من تغير بينهما يكمن في تحول أحدهما من التفخيم إلى الترقيق و بالعكس . و من ذلك : " فحصط " في : فحصت [٦٤] ، و " صوط " ، في : صوت . و منه أيضا : " تيب " ، و " تويل " ، في : طيب ، و طويل . و يعلِّق أحد الباحثين على هذا التغير بقوله : ((أمَّا التي تبدل تاء فهي الطاء الحديثة لا العربية الأصيلة)) [٦٥] . و هذا يعني أنَّ صوت " ط " يمر بمراحل تطورية متعددة ، فينتقل من صوت " ط العربية الأصيلة " إلى صوت " ط الحديثة " ، و من ثم يتغير إلى صوت " ت " من خلال ترك تفخيمه .

و يمكن اعتماد هذا الفرق في بيان ما يحدث تقابليا بين بعض اللغات . فإنَّ صوت " t " الأنجليزية يقابل صوت " ط " في العربية ، و كذلك في باقي اللغات الهند أوربية من قبيل الفارسية . و اللافت أنَّ ما يحدث في العربية هو تحول " ت " إلى " ط " على حين في التحليل التقابلي بين اللغات تتحول " ط " إلى " ت " بسبب من عدم القدرة على التفخيم .

و على الرغم من أنَّ " ت " صوت مهموس انفجاري مرقق ، فقد يكون مجهورا في اللغات العامية و لا سيما عند المصريين [٦٦] . و هذا يعني أنَّه يكون قريبا من " د " . و ه ذا ما يمكن سماعه في : " تاكل " ، و " مات " ، و " تين " . و قد يتصل هذا أيضا بالتقارب بين " ط " ، و " د " ؛ فلا يُفرِّق بينهما إلا التفخيم " الإطباق " ، إذ إنَّه ((لولا الإطباق لصارت الطاء دالا)) [٦٧] .

ج – الفرق بين " س " ، و " ص " .

" س " ، و " ص " صوتان مهموسان احتكاكيان ، و يفرق بينهما ترقيق " س " و تفخيم " ص " [٦٨] . و لشدة التقارب بينهما كثر تبادلهما ؛ فإنَّ " ص " في كلمة ما تنطق كما هي و تنطق " س " أيضا ، و كذلك " س " . و مثال ذلك : صراط ، و سراط [٦٩] ، و بسطة و بصطة [٧٠] .

المجموعة الثانية – الأصوات الأسنانية .

الأصوات الأسنانية و صفاتها هي : [٧١]

احتكاكي			
مجهور		مهموس	
مفخم	مرقق	مفخم	مرقق
ظ	ذ		ث

و تتمثل الفروق في الصفات الآتية :

١ – الجهر و الهمس :

و يظهر الفرق من خلالهما في :

أ– الفرق بين " ذ " ، و " ث " .

يتفق الصوتان في الترقيق و الاحتكاك ، و يختلفان في الجهر و الهمس [٧٢] ، فالأول مجهور و الثاني مهموس . و لذلك كان التقارب بينهما واضحا .

٢ – التفخيم و الترقيق .

و يظهر الفرق من خلالهما في :

أ– الفرق بين " ظ " ، و " ذ " .

الصوتان مجهوران احتكاكيان . و ما يفرق بينهما أنَّ " ظ " مفخم ، و " ذ " مرقق . و قد مرَّ أنَّه لولا الإطباق في الظاء لكانت ذالا [٧٣] .

و في اللهجات العراقية الحديثة يُقال : " أظَّكَّر " ، و " أظكر " في : أتذكر ، و أذَّكر . و هذا يعني أن الفرق قد زال بين الصوتين من خلال تفخيم " ذ " .

المجموعة الثالثة – الأصوات الطبقية .

الأصوات الطبقيّ و صفاتها هي : [٧٤]

انفجاري				احتكاكي			
مجهور		مهموس		مجهور		مهموس	
مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق
			ك		غ		خ

و يتمثل الفرق في الصفات الآتية :

١ – الجهر و الهمس .

و يظهر الفرق من خلالهما في :

أ– الفرق بين " غ " ، و " خ " .

يتمثل الفرق بينهما في جهر " غ " و همس " خ " [٧٥] . و ما عدا ذلك فهما يتفقان في الترقيق و الاحتكاك [٧٦] . و قد تكون لصوت " خ " ((قيمة شبه مفخمة في بعض المواقع)) [٧٧] . و هذه القيمة الاحتمالية لا تقلل من أهمية الفرق بالهمس ؛ لأنَّها تجعل من هذا الصوت قريبا من " ص " و تبعده كثيرا عن " غ " .

٢– الانفجار و الاحتكاك .

و يظهر الفرق من خلالهما في :

أ– الفرق بين " ك " ، و " خ " .

الصوتان مرققان مهموسان ، و الأول انفجاري و الثاني احتكاكي . و لم يتغير الصوتان تغيرا تبادليا فيما بينهما .

المجموعة الرابعة – صوتا الحلق .

صوتا الحلق و صفاتهما : [٧٨]

احتكاكي			
مجهور		مهموس	
مفخم	مرقق	مفخم	مرقق
	ع		ح

و تتمثل الفروق في الصفات الآتية :

١ – الجهر و الهمس :

الصوتان مرققان احتكاكيان ، غير أنَّ " ع " صوت مجهور ، و " ح " صوت مهموس . و هذا وحده يحقق الفرق بينهما . يقول ابن جني ((و لولا بحَّة في الحاء لكانت عينا)) [٧٩] . و " البحَّة " في هذا السياق الهمس و خروج النفس بلا عائق .

و همس " ع " يحوله إلى " ح " . كما في قولهم في اللهجات العراقية الحديثة : جحفر في جعفر ، و قول الأطفال : بحد في بعد ، و بطيح في بطيخ . و قد تكون " خ " قد تغير مخرجها من الطبق إلى الحلق فصار " ح " التي نسمعها فعلا فهم يقولون : بطيح ، و من ثم جهرت فصارت " ع " . و جاء هذا التغير في القراءات القرآنية ، و من ذلك قراءة : " إذا بُحْثِر ما في القبور " [٨٠] في قوله تعالى : { أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ } [٨١] . و هذا التغير قد يكون بسبب من أثر " ث " المهموسة في " ع " فجعلتها مهموسة مثلها [٨٢] . و يبقى تفسير ذلك كلّه في التحول إلى همس " ع " و زوال الفرق بينها و بين " ح " مناسبا في هذا السياق .

أمَّا صوت " ح " فقد يعتور ه شيء من الجهر في طائفة من اللهجات العربية ، مع لحاظ أنَّ هذا الجهر لا يبلغ مبلغ الجهر عند التصويت بصوت " ع " [٨٣] . و مع ذلك يمكن أن يقال إنَّ جهر " ح " يحولها إلى " ع " . و من ذلك قراءة : " عتَّى حين " [٨٤] في قوله تعالى : { ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ } [٨٥] . و هذا التحول الصوتي المسم ى بلحاظ بيئته اللغوية " فحفحة هُذيل " [٨٦] . و لعلَّ هذا التحول مخصوص بصوت " ح " في " حتَّى " دون غيرها [٨٧] . و من الدارسين من يشكك في نسبة

هذه الظاهرة الصوتية إلى قبيلة هُذيل ؛ لأنَّ هُذيلا تتصل بالحجاز . و هذا يعني أنَّها لا يُناسبها الميل إلى الجهر . و من جهة ثانية فإنَّ مصطلح " الفحفحة " لا يبدو دالا على فحوى هذا التحول ، و الأنسب أن يكون دالا على تحول " ع " إلى " ح " ؛ و من ثم نكون أمام أحد أمرين إمَّا تفسير " الفحفحة " على أنَّها تحول " ع " إلى " ح " ، فتكون هذيل المتاخمة إلى بيئة حضرية قد تحولت بصوت مجهور هو " ع " إلى مقابله المهموس " ح " . و إمَّا تغيير نسبة هذه الظاهرة إلى قبيلة بدوية أخرى [٨٨] تحرص على التحول بالصوت المهموس إلى صوت مجهور .

و قد يفسر هذا التغير تفسيرا يعتمد النظر اللغوي المقارن ، الذي يميل إلى أنَّ " عتَّى " ترتبط بالكلمات السامية ، " عتا " التي تستعمل للدلالة على الحين [٨٩] ، أو " عدى " ، أو " عد " التي تستعمل للدلالة على معنى " حتى " [٩٠] . أو هي منحوته من " حتَّى " في العربية و تلك الكلمات [٩١] .

و على الرغم من عدّ هذا التغير لهجة ، أو تفسيره تفسيرا لغويا مقارنا فلا يمنع ذلك من البحث في تفسير هذه الظاهرة الصوتية اللهجية و إضافة سبب لحدوثها يعتمد التحليل الصوتي الصفاتي القائم على الموازنة .

و من الدارسين من يرى أنَّ مثل هذا التحول هو من قبيل الخطأ النطقي أو السمعي الفردي ، و من ثم شاع بين جماعة المتكلمين في بيئة هذا المتكلم أو السامع [٩٢] . و لا تبتعد غرابة هذا الرأي و لا سيما أنَّه يهمل التحليل الفونولوجي و التحليل المقارن مع إمكان اعتمادهما و الإفادة من معطياتهما في تفسير هذا التحول .

المجموعة الخامسة – صوتا الحنجرة .

صوتا الحنجرة و صفاتهما : [٩٣]

انفجاري				احتكاكي			
مجهور		مهموس		مجهور		مهموس	
مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق
	ء		ء		هـ		

يتمثل الفرق في الصفات الآتية :

١ – الانفجار و الاحتكاك .

الصوتان مرققان مهموسان . و الهمزة صوت انفجاري . أمَّا " هـ" فصوت احتكاكي [٩٤] .

و تُثير " ء " مجموعة من المشكلات الكتابية و الأصواتية ، فقد كان الألف الصورة الكتابية في القديم لها ، و تطورت كتابتها إلى رأس العين الذي اقتطعه الخليل بن أحمد الفراهيدي ليكون شكلا كتابيا لها ؛ لقرب مخرجها من مخرج العين ، فصارت تُسمى " القُطعة " ، و " العين البتراء " [٩٥] .

و لا شكَّ في أنَّ " ء " ((صوت أصيل في اللغا ت السامية كلّها)) [٩٦] . و يكون التصويت بها من خلال التقاء الوترين الصوتيين التقاء كاملا يمنع الهواء الخارج من الرئتين فيبقى محبوسا خلفهما ، و من ثم يزول هذا الالتقاء فجأة فيُحدث الهواء المحبوس انفجارا هو صوت الهمزة [٩٧] ، أو " الوقفة الحنجرية " [٩٨] .

و مشكلة الهمزة في العربية أنَّها ذات عمق نطقي ؛ فهي أدخل الأصوات في الحلق [٩٩] ، و ((أكثر الأصوات الساكنة شدة)) [١٠٠] ، و يكون التصويت بها ((من أشق العمليات الصوتية)) [١٠١]، إذ يتطلب جهدا عضليا كبيرا ، عبر عنه العلماء بالتهوّع تارة ، و بالنبرة الكريهة تارة أخرى [١٠٢] . و لعل هذا ما جعل اللهجات السامية تميل إلى التخلص منها في النطق [١٠٣] . و هذا أيضا ما جعل العلماء يختلفون فيها ، فهي عند التراثيين صوت مجهور [١٠٤] . و اختلف فيها المحدثون [١٠٥] فمنهم من ذهب إلى أنَّها صوت مهموس [١٠٦] ، إذ ((إنَّ الأوتار الصوتية معه ، تغلق تماما ، فلا يحدث فيها ذلك الاهتزاز اللازم لصفة الجهر)) [١٠٧] . و منهم من عدَّها صوتا مجهورا[١٠٨] . و ذهب الدكتور إبراهيم أنيس إلى أنَّها صوت لا بالمهموس و لا بالمجهور [١٠٩] . و هذا هو الرأي الراجح عند الدكتور كمال بشر [١١٠] ، و الدكتور أحمد مختار عمر [١١١] . و هو رأي غير دقيق عند الدكتور عبد الرحمن أيوب ؛ لأنَّه لا وجود لحالة ثالثة بين اهتزاز الوترين و عدمه [١١٢] . و هذا مرتبط بعدم ثبات هذه الوحدة الصوتية [١١٣] . و قد يكون عدم جهرها و عدم همسها راجعا إلى أنَّ الأوتار الصوتية هي موضع إنتاجها [١١٤] ؛ فلا يعني ذلك أنَّ هنالك كلاما على حالة ثالثة .

و لعل الاختلاف بين التراثيين و المحدثين في صوت " ء " مرتبط بمفهوم " الجهر " و " الهمس " [١١٥] . و أمَّا الاختلاف بين المحدثين أنفسهم فمرتبط بمسألة التطور

الصوتي [١١٦] الذي يُصيب الوحدات الصوتية من جهة . و هو مرتبط من جهة ثانية عندهم بنظرتهم إلى " الحنجرة " فعند جماعة منهم لها ثلاث وظائف هي : " الاحتباس " و يتحقق عند التصويت بصوت " ء " فقط ، و وظيفة " الانفتاح من دون حدوث التذبذب " ، و هذه الوظيفة تصدق عند التصويت بالمهموسات . و الوظيفة الثالثة هي " الانفتاح مع حدوث التذبذب " و هي تتحقق عند التصويت بالمجهورات ؛ و الاحتكام إلى هذه الوظائف يجعل صوت " ء " صوتا غير مهموس و غير مجهور . و للحنجرة وظيفتان عند جماعة أخرى هما : " ذبذبة الوترين الصوتيين " ، و هذا ينتج الأصوات المجهورة ، و وظيفة " عدم ذبذبة الوترين الصوتيين " ، و هذا يرتج الأصوات المهموسة ، مع لحاظ أنَّ " وظيفة الاحتباس " الخاصة بالتصويت بصوت " ء " تدخل في " وظيفة عدم الذبذبة " ؛ ما يجعل صوت " ء " صوتا مهموسا [١١٧] . و إذا تم التوسع في هذه الوظائف ، مع " عدم التقيد بلحاظ الاحتباس الوتري " فإنَّ صوت " ء " قد يكون مجهورا أيضا .

و لو نظرنا إلى صوت " ء " بين أصوات الهمس نجده الأقرب إليها اعتمادا على ملاحظة أنَّ ما كان انفجاريا أقرب إلى أن يكون مهموسا . و مسألة ثانية هي أنَّ همس الهمزة يجعلها تبتعد عن " هـ " بصفتين و ابتعادها يناسب عمقها .

و من جهة أخرى يبدو أنَّ ذهاب بعض المحدثين إلى جهر " ء " يتساوق مع مؤدى فكرة الصفة الصوتية الفارقة ، إذ يدفع جهرها نحو الاحتكام إلى انفجار ها و احتكاك " هـ " للفرق بينهما . و من جهة ثانية يؤدي القول بجهر " ء " إلى أن تنقسم الأصوات الانفجارية بالتساوي ، فنكون أمام أربعة أصوات انفجارية مج هورة ، و أربعة أصوات انفجارية مهموسة .

و لعل القول بهمسها أو عدم همسها و عدم جهرها يكون م تساوقا أيضا مع تغير " ء " إلى " ع " . و ذلك في " عنعنة تميم و غيرها " إذ يقولون : أشهد عَنَّك ، و لِعَنَّك ، و عَسْلم ، و الخَبْع . في : أشهد أنَّك ، و لأنَّ ك ، و أسلم ، و الخَبْء [١١٨] . و هذا يعني أنَّ " العنعنة " ظاهرة صوتية لا تختص بهمزة " أنَّ " ، أو الهمزة المبدوء بها إنَّما تحصل في كل همزة نتيجة للمبالغة في تحقيقها [١١٩] ، أو محاولة لجهرها [١٢٠] . و مثل ذلك ما يحدث في اللهجات العربية الحديثة و لا سيما في البيئات المتاخمة للصحراء ، إذ تتحول " ء " عند التهاميين إلى " ع " فيقولون : عالة ، و العمام في : آلة ، و الإمام . و هذا يدخل في ميل البدوي إلى الجهر [١٢١] . و في اللهجات العراقية الحديثة يقولون : قرعان ، و سعل في

: قرآن ، و سأل . و نسمع الأطفال يقولون : علف في ألف . و كل هذا يكون من خلال التحول بها من الانفجار إلى الاحتكاك إذا كانت مجهورة ، و التحول بها إلى الجهر إذا كانت مهموسة ، فضلا عن تحولها إلى الاحتكاك . و هذا يعزز مرة ثانية مبدأ الصفة الفارقة في الأصوات العربية الصامتة .

و تتحول " ء " إلى " هـ " . و هذا كثيرا ما يحدث عند الطائيين . كما في قولهم : هرقت الماء ، و لهنَّك ، و هيَّ اك ، و هِن ، في : أرقت الماء ، و لأنَّك ، و إيَّاك ، و إن . و هذا التحول يحدث في اللغات السامية و لا سيما اللغة العبرية ، ففيها : هِنِّي مقابل : إن [١٢٢] . و في هذا التحول ما يعزز كون " ء " صوتا مهموسا ؛ لأنَّه يشتغل على الصفة الصوتية الفارقة و زوالها .

الفروق الصفاتية بين أصوات المخارج المتجاورة

١ – الأصوات الأسنانية و الأصوات الأسنانية اللثوية

و على الرغم من اختلاف المخارج هنا غير أنَّ التغير التبادلي يحصل بين أصواتها ذات الفرق الصفاتي الوحيد . و من ذلك :

أ– الفرق بين " ض " ، و " ظ " .

صوتان مفخمان مجهوران لا يفرق بينهما إلا كون " ض " صوتا انفجاريا ، بينما كان " ظ " صوتا احتكاكيا . و من خلال الصفة الفارقة نستطيع أن نحدد المشكل الصوتي الذي يتعرض له التصويت بصوت " ض " في العربية عندما نعلم أنَّ هذا المشكل يعود إلى عدم التدقيق عند التصويت بهما فلم نعد نحرز بدقَّة انفجار الصوت . فضلا عن الميل إلى جعل الصوتين أسنانيين خالصين ، و الدقة تقتضي أن يكون " ض " أسنانيا لثويا . فإنَّ " ظ " هي الأسنانية و " ض " هي الأسنانية اللثوية . و من الم لاحظ أنَّه ((فقدت الظاء من اللهجة العامية المصرية كذلك ، و حل محلها الضاد ؛ مثل : ظِل :– ضِل)) [١٢٣] . و ليس هذا من التغيرات الحديثة في شيء ؛ فمن المعروف ((أنَّ نطق الظاء كان قريبا من نطق الضاد . و كثيرا ما تطابقتا و تبادلتا في تأريخ اللغة العربية)) [١٢٤] . و من ذلك قراءة : " ظنين " [١٢٥] في قوله تعالى : { وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ } [١٢٦] .

ب- الفرق بين " ت " ، و " ث " .

صوتان مرققان مهموسان لا يفرق بينهما إلا كون " ت " شديدا و " ث " احتكاكيا .

و تتحول " ث " إلى " ت " و ذلك في قولهم : " الخبيت " في الخبيث . و هذه لغة خيبر التي تأثرت ببيئة الحجاز ؛ و هذا ما جعل اللغويين يشكوّ ن في هذه الرواية ، أو لا يتوقعونها ؛ ذلك أنَّ المتوقع أن يتحول الصوت الشديد إلى صوت رخو في بيئة لغوية متأثرة بالبيئة الحجازية المتحضرة [١٢٧] . لكنَّ هذا التحول حاصل في اللهجات المص رية الحديثة التي فقد فيها صوت " ث " ، فهم يقولون : " تقيل " في : ثقيل [١٢٨] . و كذلك يقولون : " كتير " ، و " تامر " ، و " تروة " ، و " حدت " ، و " متل " في : كثير ، و ثامر ، و ثروة ، و حدث ، و مثل .

ج- الفرق بين " ك " ، و " ش " .

يتفق الصوتان في الترقيق و الهمس ، و يختلفان في الانفجار و الاحتكاك ، فالأول انفجاري و الثاني احتكاكي . و هذا ما يفسر التبادل الصوتي بينهما . و عندما تتحول " ك " إلى " ش " فإنَّ تحولا بالصوت حدث من الشدة إلى الرخا وة ، و هذا ما يفسر الظواهر الصوتية ا لمعروفة " الكشكشة " أو " الكسكسة " أو " الشنشنة " . و " الكشكشة " تحول " كِ " المؤنثة إلى " ش " في حال الوقف ، أو إلحاقها بها . و هي لهجة لربيعة ، و بكر ، و قوم من تميم ، و أسد . و ذلك قولهم : إنَّشِ ، في إنَّكِ ، و أعطيتكِشْ ، في : أعطيتكِ [١٢٩] . و " الكسكسة " لهجة لبكر ، و هوازن . و قد يكون لربيعة ، و مضر ، و تميم . و تتمثَّل في تحول " كِ " المخاطبة إلى " س " أو إلحاقها بها . و ذلك قولهم : مِنسِ ، في : منكِ . و عليكِس ، في : عليكِ [١٣٠] . أمَّا " الشنشنة " فهي لهجة من لهجات اليمن . و ذلك قولهم : لَبَّيْش اللهم لَبَّيْش ، في : لَبَّيْك اللهم لَبَّيْكَ [١٣١] . و على الرغم من أنَّ اللغويين لم تتحدد عندهم بدقة هذه الظاهرة ، فقد قيل إنَّ " كِ " المؤنثة تتحول إلى " ش " أو " س " في حالة الوقف . و قالوا أيضا إنَّها لا تتحول بل تضاف إليها " س " أو " ش " ؛ فإنَّ لهذه الظاهرة وجودها و تفسيرها .

و عدم التحديد هذا قاد اللغويين المحدثين إلى أن عدّوا " الكسكسة " تصحيفا لمصطلح " الكشكشة " ؛ لأنهم لم يجدوا ما يقنع أن تأتي ظاهرتان مختلفتان عن قبيلة واحدة ، و الكلام هنا على ربيعة . أمَّا " شنشنة " اليمن فهي " كشكشة " ربيعة نفسها . و ما

بدا أنَّ " الكشكشة " أو " الشنشنة " التي تحصل بتحول " ك " إلى " ش " يمكن تفسيرها اعتمادا على " قانون الأصوات الحنكية " الذي يتكلَّم على ميل أصوات أقصى الحنك إلى نظائرها الأمامية عندما تكون متلوة بصوت اللين الأمامي " الكسرة " أو " الفتحة " المرققة . و الحقيقة أنَّ الصوت المسموع أ و الذي تتحول إليه " ك " هو صوت " تش " يتكون من عنصرين أولهما صوت شديد يشبه " ت " و ثانيهما صوت رخو يشبه " ش " . و هذا التحول ما يزال مسموعا بين البدو في اللهجات المصرية الحديثة ، و في بعض مناطق العراق و فلسطين و سوريا . فيقولون : " بِتْلَبْ " في : كلب [١٣٢] . و هذا يعني أنَّ المسألة هي مسألة ازدواج صوتي في صوت " ك " عُبِّر عنه كتابيا بهذا التحول أو الإلحاق [١٣٣] .

د- الفرق بين " د " ، و " ذ " .

يتمثَّل الفرق بينهما في انفجار " د " و احتكاك " ذ " . و ما سوى ذلك فهما متماثلان في الترقيق و الجهر .

و ما يحدث أن تتغ ير " ذ " إلى " د " بتحولها إلى الانفجار كما في اللهجات المصرية الحديثة ، إذ ((ضاع صوت الذال كذلك ، في اللهجة العامية ا لمصرية ، و حل محله الدال)) [١٣٤] ، كقولهم : " دهب " ، و " دِيل " ، في : ذهب ، و ذَيل [١٣٥] . و قولهم : " ديب " ،و " دَكر " ، في : ذيب ، و ذَكر . و في العراق يقولون : " أستاد " ، في : أستاذ .

هـ - الفرق بين " س " و " ش " .

الصوتان مهموسان احتكاكيان مرققان . و على الرغم من أنَّ صوت " ش " له مظهر صوتي يختلف عنه ؛ ذلك أنَّه قد يُجهر في بعض البيئات اللغوية الحديثة [١٣٦] ، غير أنَّه لم يحتج الفرق إلا مع صوت يماثله في صفاته الرئيسة ، و هو صوت " س " .

و ما يميز الصوتين صفة التفشي . و هو أن يتخذ اللسان مساحة واسعة عند التصويت بالصوت . و هذه الحالة النطقية تصدق على صوت " ش " [١٣٧] . و من ثم فإنَّه ((لولا التفشي لصارت الشين سينا)) [١٣٨] . و قد يتمثَّل هذا " التفشي " بضجَّة عشوائية تصحب التصويت بهذه الوحدة الصوتية [١٣٩] . على الرغم من أنَّ " ش " كصوت " س " صوت صفيري [١٤٠] ، غير أنَّ الصفيريَّة لم تستطع أن تغلب على التفشي الشيني ؛ ذلك أنَّها في " ش " أقل منها في " س " . و يحدث هذا ؛ ((لأنَّ مجرى السين عند مخرجها أضيق من مجرى الشين عند المخرج . و يلاحظ عند النطق بالشين أنَّ اللسان كلَّه يرتفع نحو

الحنك الأعلى ، كما أنَّ الأسنان العليا تقترب من السفلى ، غير أنَّ نسبة الاقتراب أقل منه في حالة النطق بالسين)) [١٤١] .

هـ- الفرق بين " ع " ، و " هـ " .

الصوتان مرققان احتكاكيان ، يفرق بينهما جهر " ع " و همس " هـ " كما مر . غير أنَّ المحدثين قد اختلفوا في ذلك ، و هذا الاختلاف هو الذي دعا إلى النظر في الصفة الفارقة بينهما بغية الوصول إلى حقيقة صفة هذا الصوت أو مقاربتها .

عندما يخرج صوت " هـ " ((يحتك الهواء الخارج من الرئتين ، بمنطقة الأو تار الصوتية دون أن تحدث ذبذبة لهذه الأوتار ، و يرتفع الطبق ليسد المجرى الأنفي ، و يتخذ الفم عند النطق بالهاء نفس الوضع ، الذي يتخذه عند النطق بالحركات ... و لولا هذا الحفيف الذي يحدث بمنطقة الأوتار الصوتية ، لما سمع غير صوت الزفير العادي ، كما أنَّ انعدام الذبذبات هنا ، هو الذي يميز الهاء عن الحركات)) [١٤٢] .

و قد قيل إنَّ صوت " هـ " مجهور ((يتم النطق به بتضييق الأوتار الصوتية إلى مرحلة في منتصف الطريق بين الهمس و الجهر ، حتى إذا مر هواء الرئتين بينهما كان لاحتكاكه بهما أثر صوتي لا هو بالحس [١٤٣] ، و لا هو بالتنفس . هذا الأثر الصوتي فيه بعض الذبذبة ،و ذلك ما يجعلنا ننظر إلى هذا الصوت باعتباره مجهورا . و لكن هذا الصوت المجهور يهمس إذا وليه آخر مهموس ... أمَّا إذا تلاه صوت مجهور ، بقى على جهره . و يعطي قراء القرآن في مصر عناية خاصة لجهر هذا الصوت ، حتى ليبلغون به ح د المبالغة أحيانا)) [١٤٤] ، أو أنَّه ((صوت مهموس يجهر به في بعض الظروف اللغوية الخاصة)) [١٤٥] .

و تقتضي الصفة الفارقة أن يكون " هـ "صوتا مهموسا ؛ لأنَّ جهره سيجعله " ع " . و لا يبقى عندئذ لصوت " هـ " أثر بين الصوامت العربية الذي يصعب ـ مع كونه مهمو سا ـ وجوده بينها بسبب من مزاحمة الصوائت له .

و هنالك مسألة مهمة هي أنَّ صوت " هـ " إذا كان مجهورا ، فإنَّ ذلك يدفع نحو أن يكون صوت " ء " مجهورا أيضا ؛ ذلك أنَّ أصوات المخرج الواحد قد انتظمت كلّها بوجود فارق صفاتي واحد فيما بينها . و اللافت للانتباه أنَّ القائلين بجهر " هـ " قد قالوا بهمس " ء " ، و هذا لا ينسجم مع فكرة الصفة الصوتية الفارقة و لا سيما بين أصوات المخرج الواحد .

الهوامش

[١] ينظر . اللغة بين المعيارية و الوصفية ، د. تمَّام حسَّان١١٨- ١١٩ .
[٢] ينظر . مناهج البحث في اللغة ، د. تمَّام حسَّان ٨٤ .
[٣] اللغة بين المعيارية و الوصفية١١٨ .
[٤] ينظر . علم الأصوات اللغوية ، د. مناف مهدي الموسوي٤٥- ٥٠ .
[٥] ينظر . علم الأصوات العام -الأصوات ، د. كمال بشر ١٠٠ .
[٦] ينظر . علم الأصوات اللغوية٤٧ .
[٧] ينظر . مناهج البحث في اللغ ١٢٤ .
[٨] ينظر . الأصوات اللغوية ، د. إبراهيم أنيس١١٨ .
[٩] ينظر . علم اللغة العام– الأصوات ١٠٤ .
[١٠] الأصوات اللغوية٤٩ .
[١١] ينظر . علم اللغة العام– الأصوات ١٠٥- ١٠٦ .
[١٢] الكتاب ٤ / ٤٣٦ .
[١٣] الأصوات اللغوية٥١ .
[١٤] ينظر . الأصوات اللغوية٤٩- ٥٠ .
[١٥] علم اللغة العام – الأصوات ١٠٧ .
[١٦] الأصوات اللغوية٥٠ .
[١٧] ينظر . الكتاب ٤ / ٤٣٢ .
[١٨] الأصوات اللغوية٥٢ .
[١٩] الأصوات اللغوية٥٥ .
[٢٠] ينظر . تجويد القرآن الكريم من منظور علم الأصوات الحديث ، د. عبد الغفار حامد هلال٣٩ .
[٢١] التطور النحوي للغة العربية ، برجشتراسر١٨ .
[٢٢] علم اللغة العام– الأصوات ١٠٧ .
[٢٣] التطور النحوي للغة العربية١٩ .
[٢٤] ينظر . تجويد القرآن الكريم من منظور علم الأصوات الحديث٤٠ .
[٢٥] العربية - دراسات في اللغة و اللهجات و الأساليب١١١ .
[٢٦] ينظر . علم اللغة العام– الأصوات١٠٨ .
[٢٧] ينظر . المدخل على علم اللغة و مناهج البحث اللغوي ، د. رمضان عبد التواب٦٨ .
[٢٨] ينظر . المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٦٨ – ٦٩ .
[٢٩] ينظر . كلام العرب ، حسن ظاظا١٨ ، ٢٨٩ ، ملامح في فقه اللهجات العربيات من الأكادية و الكنعانية و حتى السبئية و العدنانية ، د. محمد بهجت قبيسي ٢١٧ ، الحروف العربية و تبدلاتها الصوتية في كتاب سيبويه- خلفيات و امتداد ، د. مكي درار ١٣٢ – ١٣٣ .
[٣٠] ينظر . الحروف العربية و تبدلاتها الصوتية في كتاب سيبويه- خلفيات و امتداد ١٣٣ .
[٣١] العربية - دراسات في اللغة و اللهجات و الأساليب١٠٢ . و ينظر . المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٦٧- ٦٨ .
[٣٢] ينظر . تجويد القرآن الكريم من منظور علم الأصوات الحديث٣٩ – ٤٠ .
[٣٣] العربية - دراسات في اللغة و اللهجات و الأساليب١٠٣ .
[٣٤] الأصوات اللغوية٥٠ .
[٣٥] ينظر . الكتاب ٤ / ٤٣٤ .
[٣٦] ينظر . مناهج البحث في اللغة٩٤- ٩٣ .
[٣٧] ينظر . علم الأصوات عند سيبويه و عندنا ، شادة٥٨ .
[٣٨] ينظر . التطور النحوي للغة العربية١٩ .
[٣٩] ينظر . مناهج البحث في اللغة٩٥ .
[٤٠] مناهج البحث في اللغة٨٨ .
[٤١] الكتاب ٤ / ٢٤٠ .
[٤٢] مناهج البحث في اللغة٩٣ .
[٤٣] ينظر . الإبدال ، أبو الطيب اللغوي ١/ ١٠٩ .
[٤٤] ينظر . مناهج البحث في اللغة٩٣- ٩٤ .
[٤٥] ينظر . الكتاب ٤ / ٢٤٠ .
[٤٦] ينظر . مناهج البحث في اللغة٩٥ .
[٤٧] ينظر . في اللهجات العربية ، د. إبراهيم أنيس ١٠٥ .
[٤٨] ينظر . المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٤٧ .
[٤٩] ينظر . القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث٤٠٤ .
[٥٠] ينظر . مناهج البحث في اللغة١٠٠- ١٠١ .
[٥١] ينظر . الإبدال ٢ / ١١٨ .
[٥٢] ينظر . القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث٤٠١ – ٤٠٢ .
[٥٣] ينظر . البحر المحيط ، أبو حيان الأندلسي ١ / ٢٥ .

[٥٤] ينظر . القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث٤٠٢ – ٤٠٤ .
[٥٥] ينظر . التطور اللغوي– مظاهره و علله و قوانينه ، د. رمضان عبد التواب٤٧ .
[٥٦] ينظر . منهج البحث اللغوي بين التراث و علم اللغة الحديث ، د. علي زوين ٤١ – ٤٢ .
[٥٧] ينظر . في اللهجات العربية٩٢- ٩٣ .
[٥٨] في اللهجات العربية٩٣ .
[٥٩] ينظر . مناهج البحث في اللغة٨٩ .
[٦٠] ينظر . مناهج البحث في اللغة ٩٠ .
[٦١] مناهج البحث في اللغة٩٠ .
[٦٢] مناهج البحث في اللغة٩٠ .
[٦٣] ينظر . المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٤٦- ٤٧ .
[٦٤] ينظر . الكتاب ٤ / ٢٤٠ .
[٦٥] تجويد القرآن الكريم من منظور علم الأصوات الحديث٦٧ .
[٦٦] ينظر . مناهج البحث في اللغة٩٥ .
[٦٧] الكتاب ٤ / ٤٣٦ .
[٦٨] ينظر . المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٤٧ .
[٦٩] ينظر . البحر المحيط ١ / ٢٥ .
[٧٠] ينظر . العنوان في القراءات السبع ، أبو طاهر الأندلسي٧٤ .
[٧١] ينظر . مناهج البحث في اللغة١٢٤ .
[٧٢] ينظر . المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٤٥ .
[٧٣] ينظر . الكتاب ٤ / ٤٣٦ .
[٧٤] ينظر . مناهج البحث في اللغة١٢٤ .
[٧٥] ينظر . تجويد القرآن الكريم من منظور علم الأصوات الحديث٣٦ .
[٧٦] ينظر . المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٥٤ .
[٧٧] مناهج البحث في اللغة١٠٢ .
[٧٨] ينظر . مناهج البحث في اللغة١٢٤ .
[٧٩] سر صناعة الإعراب٢/ ٢٤٦ .
[٨٠] ينظر . البحر المحيط ٨ / ٥٠٥ .
[٨١] العاديات / ٩ .
[٨٢] في اللهجات العربية٩٦ .
[٨٣] مناهج البحث في اللغة١٠٣ .
[٨٤] ينظر . المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات و الإيضاح عنها ، ابن جني١ / ٣٤٣ .
[٨٥] يوسف / ٣٥ .
[٨٦] ينظر . في اللهجات العربية٩٥ .
[٨٧] ينظر . فصول في فقه العربية١٣٩ .
[٨٨] ينظر . في اللهجات العربية٩٥- ٩٦ .
[٨٩] ينظر . فقه اللغة المقارن ، د. إبراهيم السامرائي١١٩ .
[٩٠] ينظر . المستشرقون و المناهج اللغوية ، د. إسماعيل أحمد عمايرة٧٨ .
[٩١] ينظر . فصول في فقه العربية١٣٩ .
[٩٢] ينظر . الدراسات اللهجية و الصوتية عند ابن جني ، د. حسام سعيد النعيمي ١٢٠ .
[٩٣] ينظر . مناهج البحث في اللغة١٢٤ .
[٩٤] ينظر . علم الأصوات اللغوية٨٦ – ٨٩ .
[٩٥] ينظر . مشكلة الهمزة العربية ، د. رمضان عبد التواب١٤- ١٥ .
[٩٦] مشكلة الهمزة العربية٢٤ .
[٩٧] ينظر . في اللهجات العربية٦٨ ، مشكلة الهمزة العربية٢٤ .
[٩٨] ينظر . دراسة الصوت اللغوي ، د. أحمد مختار عمر١٢٨ .
[٩٩] ينظر . دروس في علم أصوات العربية ، جان كانتينو٣٢ .
[١٠٠] في اللهجات العربية٦٨ .
[١٠١] في اللهجات العربية٦٨ .
[١٠٢] ينظر . مشكلة الهمزة العربية٢٤ .
[١٠٣] ينظر . في اللهجات العربية٦٨ .
[١٠٤] ينظر . الكتاب ٤/ ٤٣٤ ، سر صناعة الإعراب ٦٩/١ .
[١٠٥] ينظر . القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث ، د. عبد الصبور شاهين ٢٤ .
[١٠٦] مناهج البحث في اللغة١٢٤ ، التطور اللغوي– مظاهره و علله و قوانينه١٢٨ ، مشكلة الهمزة العربية٢٤ ، علم الأصوات اللغوية ٨٦ .
[١٠٧] المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٥٦ .
[١٠٨] ينظر . دراسات في فقه اللغة ، د. صبحي الصالح٣٢٥ ، التعليل الصوتي عند العرب في ضوء علم الصوت الحديث– قراءة في كتاب سيبويه ، د. عادل نذير بيري الحساني١٢٦ .
[١٠٩] ينظر . في اللهجات العربية٦٨ ، ٩٧ .
[١١٠] ينظر . علم اللغة العام– الأصوات ١١٢ .

[١١١] ينظر . دراسة الصوت اللغوي١٢٩ .
[١١٢] ينظر . أصوات اللغة١٨٣ .
[١١٣] ينظر . التشكيل الصوتي في اللغة العربية ، د. سلمان العاني ٩٥ .
[١١٤] ينظر . دراسة الصوت اللغوي١٢٩ .
[١١٥] ينظر . الحروف العربية و تبدلاتها الصوتية في كتاب سيبويه– خلفيات و امتداد ٨٨ .
[١١٦] ينظر . المصطلح الصوتي في الدراسات العربية ، د. عبد العزيز الصيغ٩٨ .
[١١٧] ينظر . القراءات القرآنية في ضوء علم اللغة الحديث٢٤ .
[١١٨] فصول في فقه العربية ، د. رمضان عبد التواب١٣٦ - ١٣٧، مشكلة الهمزة العربية٤١- ٤٣ .
[١١٩] ينظر . مشكلة الهمزة العربية٤٤ .
[١٢٠] ينظر . في اللهجات العربية٩٧ .
[١٢١] ينظر . في اللهجات العربية٩٧ ، ١٠٠ .
[١٢٢] ينظر . مشكلة الهمزة العربية٤٦ .
[١٢٣] المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٤٦ .
[١٢٤] التطور النحوي للغة العربية١٩ .
[١٢٥] ينظر . الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل ، الزمخشري٤ / ٢٢٥ .
[١٢٦] التكوير : ٢٤ .
[١٢٧] ينظر . في اللهجات العربية٩٠- ٩١ .
[١٢٨] ينظر . المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٤٥ .
[١٢٩] ينظر . فصول في فقه العربية١٤١ – ١٤٤ .
[١٣٠] ينظر . فصول في فقه العربية١٤٠ – ١٤١ .
[١٣١] ينظر . فصول في فقه العربية١٢٧ .
[١٣٢] ينظر . في اللهجات العربية١٠٦- ١٠٩ .
[١٣٣] ينظر . فصول في فقه العربية١٤٦ .
[١٣٤] المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٤٥ .
[١٣٥] ينظر . المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٤٥ .
[١٣٦] ينظر . المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٥٠ .
[١٣٧] ينظر . دروس في علم أصوات العربية٣٨ .
[١٣٨] علم الأصوات ، مالبرج ١٢٠ .
[١٣٩] ينظر . التشكيل الصوتي في اللغة العربية ، د. سلمان العاني٥٧ .
[١٤٠] ينظر . الأصوات اللغوية٧٥
[١٤١] الأصوات اللغوية٧٥ .
[١٤٢] المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٥٨- ٥٩ .
[١٤٣] يقصد بها حالة الجهر . ينظر . المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي ٥٩ .
[١٤٤] مناهج البحث في اللغة١٠٣ .
[١٤٥] المدخل إلى علم اللغة و مناهج البحث اللغوي٥٩ .